

البَابُ الثَّانِي

بَيْنَ السُّلْطَانِ وَالْإِمَامِ

« السلطان كراكب الأسد ،
يهابه الناس ، وهو لمركوبه
أهيب » .

أفلاطون

آلت الخلافة إلى بني العباس سنة ١٣٢ وكان « السفاح » أول خلفائهم . ثم مات فخلفه أبو جعفر المنصور ، ليبقى في الخلافة اثنين وعشرين عاماً (١٣٦ - ١٥٨) . وطّد فيها أركان الدولة العباسية ، وأخضع الخارجين عليها في كل أرجاء « الإمبراطورية » فهي لم تعد دولة دينية كما دعوا لها منذ بثوا دعائهم من فاتحة القرن . ولم تصر « للرضا من آل محمد » كما كانوا يدّعون . بل غصبوا حق أبناء عليّ ، كما كان بنو عليّ عند قيامها عاجزين عن تولى السلطة . وكان أحقهم بها - وهو جعفر بن محمد - عازفاً عنها ، عارفاً أن مهمة حياته هي تعليم المسلمين .

وجرت الأمور مجراها الطبيعي للغالبين على السلطة ، يطوون أضالعهم على الخوف والحقد والحذر . ويشرعون أسلحتهم في كل مكان للدفاع عن دولتهم . وكان ذوو القربى في طليعة الأعداء ، فاستعرت الشحنة بين الأقرباء ، ثم سالت الدماء . وجعفر الصادق ، بعزوفه واستعلائه ، بعيد عن المذابح . لكن بعده عنها ، لا يقيه بطش خليفة حذر ، متمنر ، تدعوه إلى المواجهة الشرسة ما توسوس له هواجسه مخافة أهل البيت وشيعتهم . وكان توفيق السوء حليف الإمام في مواجهاته ، وإن بقيت الدولة على حذرهما ، تنزل بأهل البيت العذاب والاسترهاب والحبس والقتل للخلاص منهم - مع التظاهر بالعدل فيهم ، حتى تقطع دابرهم .

الفصل الأول

بين السلطان والإمام

« إنما أنا سلطان الله في الأرض »
« أبو جعفر المنصور »

أهل البيت

اختلف أهل التأويل في صدد « أهل البيت » ، وهم يفسرون قوله تعالى في سورة الأحزاب : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكَ إِنْ كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعُكُمْ وَأُسَرِّحُكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِنْ كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمَحْسَنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا) ثم يوجه الخطاب في الآيات ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، وفي الأخيرتين يقول - لنساء النبي - (وَقرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى . وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا . وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) .

وإذ كان التطهير هو الدرجة العليا للبشر ، والاختصاص به بين المسلمين يجعل لأهل البيت حقوقًا وامتيازات تؤهل لإمامة الدين ، وإمامة الدنيا ، أي خلافة الدين والدنيا ، وكان ثمة سنن مروية في تفضيل عليّ وبنيه وجعلهم من الأمة يجعل الأوصياء أو الأئمة وهذا شأن لا يسلمه بنو أمية ، ولا بنو مروان ، ولا بنو العباس ، ولا كثير من قريش ، فقد ذهب الفقهاء عمومًا ، والمفسرون

خصوصًا ، مذاهب شتى في تعريف أهل البيت ، يمكن تحصيلها فيمايلي :

١ - قال الشيعة : إن أهل البيت هم رسول الله ﷺ وعلى وفاطمة والحسن والحسين . يؤيدهم في ذلك حديث أم سلمة أم المؤمنين أن النبي أجلس الأربعة حوله على كساء له وضعه فوق رءوسهم وأومأ بيده اليمنى إلى ربه ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل البيت . فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » .

وعن أم سلمة أن الآية نزلت والرسول ﷺ في بيتها وأنها عندئذ كانت على باب البيت فقالت : أنا يارسول الله من أهل البيت ؟ وأنه قال : « وإنك إلى خير وأنت من أزواج النبي » وعنهما أنها قالت : يارسول الله أدخلني معهم . وأنه قال : « إنك من أهلى » .

٢ - وقال البعض : بلى عني الله بذلك أزواج النبي ، والحجة في ذلك توجيه الخطاب إليهن . ونقلوا ذلك عن ابن عباس ، تلميذ على وشيعته ، وعامله - وذهبوا إلى أن « البيت » أريد به مساكن النبي ﷺ .

٣ - وقال فريق : بل إن « أهل النبي » هم أهل بيته . ولو كان أهل البيت هم زوجاته فقط لكان النص : (ليذهب عنكن الرجس) لا (عنكن) كما هو النص في الآية . فدخل في ذلك رجال . وأهل النبي - بدلالة السنن التي أشرنا إلى بعضها - هم فاطمة وعلى والحسن والحسين ويؤيد ذلك قول الآية (ويطهركم) . وهذا يوافق الرأي الأول .

٤ - وإذا دخل الرجال فهم - كما قال فريق آخر - بنو هاشم . والبيت يراد به بيت النسب . فيدخل في ذلك أعمام النبي ، وفيهم بنو العباس وبنو أبي طالب .

٥ - ويتوسع محيي الدين بن عربي (٥٦٠) - في الفتوحات المكية - فيدخل « الفارسي » في أهل البيت . إذ الرسول يقول : « سلمان منا أهل البيت » ويضيف ابن عربي أن جميع ما يصدر عن أهل البيت معفو عنهم فيه . فهو مطهرون بالنص . معصومون . وإن توجهت عليهم الأحكام الشرعية . ويذكر البعض قول الرسول : « سألت ربي ألا يدخل النار أحدًا من أهل

بيتي فأعطانا ذلك » وقوله : يا فاطمة ، تدرين لم سميت فاطمة ؟ فقال عليّ : لم سميت ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله عزّ وجل قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة » .

٦ - وفريق يرى أن أبناء عليّ من الزهراء هم الذرية المقصودة في سورة الطور حيث قوله - جل ثناؤه : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) ورووا عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته » .

وهذا ترتفع ذرية النبي - وهى ذرية عليّ من الزهراء - فتلتحق بالنبي . وهذا المعنى تفيدته الآية ٢٣ من سورة الرعد : (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) فأهل البيت ذرية داخلية الجنة مع جدّها عليه الصلاة والسلام .

٧ - وهذا فريق يوسع فيشمل ذوى القربى ، وتشمل آل محمد ، بقوله تعالى في سورة الشورى : (قل لا أسألكم عليه أجرًا إلاّ المودة في القربى) . وقال قوم : إن للنبي قرابة في كل بطن من بطون قريش ، وإن كان أخص القرابة هم الذرية .

وظاهر أن كل هذه الأفراق على أن ذرية عليّ من فاطمة من أهل البيت ، وأن الخلاف فيما عدا ذلك ، فيرجح البعض أن القرآن والسنة الشارحة يجعلان أهل البيت هم ذرية النبي من عليّ وفاطمة ، وهما ومعها أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .

لكن الشيعة يقولون قولاً واحداً : إن الذرية وحدها وعليّ وفاطمة هم أهل البيت ، بدلالات شتى من الحديث . ثابت منها أن النبي طفق ستة أشهر - بعد نزول آية التطهير - ير وقت صلاة الفجر على بيت فاطمة فينادى « الصلاة يا أهل البيت . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم

تطهيراً » . فهذا نص وأنص منه حديث أم سلمة . إذ أفصح عنهم . واستبعد سواهم .

وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ أدخل علياً وفاطمة وابنيهما تحت الكساء ثم جعل يقول : « اللهم إليك لا إلى النار وأنا وأهل بيتي . اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي - وفي رواية وحامتي - اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » .

وسيطل وصف أهل البيت قضية بين بنى العباس وبنى عليّ . فهو من مسوغات الخلافة واستمرار الرضا عنها . سأل الرشيد يوماً الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق : بم قلتم نحن ذرية رسول الله وأنتم بنو عليّ ؟ قال : قال تعالى : (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين وذكرياً ويحيى وعيسى) وليس لعيسى أب ، وإنما ألحق بذرية الأنبياء من قبل أمه . وكذلك ألحقنا بالنبي أمنا فاطمة . وزيادة على ذلك قال عز وجل : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) ولم يدع رسول الله ﷺ عند مباهلة النصارى غير عليّ وفاطمة والحسن والحسين .

ولم يكن لوصف أهل البيت كبير خطر ، في دنيا الملوك من بنى أمية ، فلقد غلبوا أهل البيت على أمرهم جهاراً ونهاراً ، برماحهم ، واستقرار الأمور لهم - لكن الدولة في عهد بنى العباس قامت على شعار الدعوة « للرضا من آل محمد » دون تسمية أحد بذاته .

ولما أقبلت جيوش خراسان يقودها أبو مسلم الخراساني ، بالدولة الجديدة ، بعد ربع قرن من الإعداد السري ، كان مقدمها استجابة لهذا الشعار .



كتب أبو مسلم الخراساني أيامئذ إلى الإمام جعفر الصادق : « إني قد أظهرت الكلمة ودعوت الناس عن بنى أمية إلى موالاة « أهل البيت » . فإن

رغبت فلا مزيد عليك » . وأجاب جعفر الصادق معلناً فلسفته : « ما أنت من رجالي . ولا الزمان زمانى »^(١) .

وفي الوقت ذاته بعث أبو سلمة الحلال - الملقب بوزير آل محمد ، والذي سيصبح وزيراً للسفاح أول خلفاء بني العباس - إلى جعفر الصادق ، وعبد الله ابن .. « الحسن » ، وعمرو الأشرف ، من أبناء عليّ ، مع رجل من موالي أبي سلمة قائلاً له : إن أجب جعفر فلا تذهب إلى غيره ، وإن لم يجب فاقصد إلى عبد الله . فإن أجب فأبطل كتاب عمرو . وذهب الرسول إلى جعفر فقال : مالى ولأبى سلمة ، وهو شيعة لغيرى . ووضع الكتاب فى النار حتى احترق - وأبى أن يقرأه . قال الرسول : ألا تحببته ؟

قال : قد رأيت الجواب .

ثم مضى الرسول إلى عبد الله . فقرأ الكتاب . وقصد إلى جعفر الصادق ينبئه بورود الكتاب إليه من شيعته بخراسان . قال الصادق له : ومتى كان لك شيعة بخراسان ؟ أنت وجهت أبا مسلم إليهم ؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه ؟ فكيف يكونون شيعتك وهم لا يعرفونك وأنت لا تعرفهم ؟ قال عبد الله : كأن هذا الكلام منك لشيء ؟

قال الصادق : قد علم الله أنى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم . فكيف أخره عنك ؟ فلا تمن نفسك فإن الدولة ستتم لهؤلاء .

وذاث يوم دخل على جعفر الصادق سدير الصيرفى قال : ياأبا عبد الله . مايسعك القعود . قال : لم ؟ قال : لكثرة أنصارك .. مائة ألف . مائتى ألف . فتساءل الإمام عن عدد المخلصين منهم . وأبدى زهداً وبصراً بالعواقب .

(١) خرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب على بنى مروان سنة ١٢٧ فى الرى بخراسان ثم استسلم لأبى مسلم بعد إذ ظفر الأخير بجيوش بنى مروان . وكتب إليه يستعطفه بقوله : « من الأسير بين يديه بلا ذنب إليه ولا خلاف عليه . فإن الناس من حوزك رواة ونحن منه ظماء رزقنا الله منك التحنن ... فإنك أمين مستودع ورائد مصطنع . والسلام عليكم ورحمة الله » ولم يطلقه أبو مسلم . بل أوردته حنفته . وقيل سمّه .

والحق أن زين العابدين وابنه وحفيده وبنينهم لم يتجهوا إلى أن تكون لهم « دولة ». ومن ذلك قول الكاظم هشام بن الحكم : « ياهشام كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا » .

ولما خرج زيد بن زين العابدين على هشام كان خروجه ثورة طارئة . والمنهج الزيدي غير منهج الإمام جعفر . وثورة زيد لم يسبقها إعداد بل استجاب لأهل الكوفة فخذلوه كما خذلوا جدّه . وإنما الذى فكر ودبر وأنفذ الدعاة ، وتابع الدعوة ، هم بنو العباس .

وإبراهيم الإمام يكتب إلى واحد من دعائه فى خراسان : « .. وإن استطعت ألا تبقى فى خراسان من يتكلم العربية فافعل » وهو تعطش للدم فى سبيل السلطة ، وسفك لدماء العرب خاصة ، لا يقول به واحد من الأئمة .



وكان بنو هاشم قد اجتمعوا قبل ذلك بالأبواء - مكان فى أعلى المدينة - والقدور تغلى فى خراسان ، والجو يزخر بالندى ، فعلى الذين يرسلون الدعاة إلى خراسان ، والذين تجرى الدعوة لهم ، أن يتدارسوا أمورهم ، ليعرفوا لمن تتول الأمور . فمثل فرع العباس بن عبد المطلب عم النبى إبراهيم الإمام « بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس » ، وأخوه أبو جعفر « المنصور » . وعمهما صالح بن على . ومثل فرع بنى على بن أبى طالب ، عبد الله بن الحسن « بن الحسن بن على » وابناه محمد وإبراهيم . ومحمد ابن عبد الله بن .. عثمان بن عفان « لأن أمه من بنى الحسن بن على » وهو أخو عبد الله لأمه .

وأجمع الفرعان على « محمد بن عبد الله بن الحسن » الملقب بالنفس الزكية لورعه الكامل وعلمه المشهود به . بل قد تحمس له أبو جعفر ، وكان يومئذ يلبس قباء أصفر . ولما حج محمد لقي أبا جعفر فبايعه مرة أخرى . بالمسجد الحرام ذاته . وأمسك أبو جعفر بركابه يوم ذاك وراح يقول للناس : هذا مهدينا أهل البيت .

وإذ لم يكن لبیت الحسين ممثل في اجتماع يوم الأبواء بعث عبد الله ابن الحسن إلى كبيرهم جعفر بن محمد فحضر واعترض على بيعة محمد ابن عبد الله .

قال : لا تفعلوا . فإن هذا الأمر لم يأت بعد . لا ندعك وأنت شيخنا ونبایع ابنك . وفي رواية أخرى أنه أضاف : إن كنت ترى أن ابنك هذا هو المهدي فليس به . وإن كنت إنما تريد أن تخرجه غضباً لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . فإننا والله لا ندعك وأنت شيخنا ونبایع ابنك^(١) .

فغضب عبد الله وقال : لقد علمت خلاف ما تقول . ولكن يحملك على هذا الحسد لابني^(٢) .

قال جعفر : والله ماذا يحملني . ولكن هذا وإخوته وأبنائهم دونكم .. إنها والله ما هي إليك ولكن لهم . وإن ابنك لمقتولان . ثم نهض وتوكل على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال : « رأيت صاحب القباء الأصفر » - « أبا جعفر » - قال نعم : قال : فإننا والله نجده يقتله .

قال عبد العزيز : أیقتل محمداً ؟ قال : نعم .

قال عبد العزيز : فيما بعد « فقلت في نفسي حسده ورب الكعبة » ثم قال عبد العزيز : ثم والله ما خرجت من الدنيا حتى رأيته قتلها « محمداً وأباه » . قال : فلما قال جعفر ذلك انفض القوم فافترقوا ولم يجتمعوا بعدها . وتبعه أبو جعفر وعبد الصمد « من أعمام أبي جعفر » فقالا : يا أبا عبد الله « جعفر الصادق » أتقول هذا ؟ قال : نعم . أقوله والله وأعلمه ..

قالوا : كان أبو جعفر يسميه الصادق لصدق نبوءته .

وقالوا : دعا محمد عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة لمبايعته فاعتل عليه وقال لا أبایع أحداً حتى أختبر عدله .

(١) وليس في نص الروایتین بيعة من جعفر الصادق لعبد الله أو لابنه محمد ، كما وهم البعض ، وإنما فيها تفضيل للأب على الابن مع رفض البيعة .

(٢) وفي رواية أخرى أنه أضاف « والله ما أطلعك الله على غيبه » .

ولقد ظل أبو جعفر المنصور يذكر هذا لعمره .
وكان جعفر الصادق إذا رأى محمد بن عبد الله بعد ذلك تغرغرت عيناه
وقال : بنفسى هو .. إن الناس ليقولون إنه المهدي . وإنه لمقتول . ليس في
« كتاب عليّ » من خلفاء هذه الأمة .

بايع أبو سلمة الخلال للسفاح . ولم يبايع لأبي جعفر ، الأخ الأكبر ، لأن
أمه كانت أم ولد بربرية تدعى سلامة . وبدأ حكم بني العباس في سنة ١٣٢ .
وأذيع في الملأ أن محمد بن علي - أبا السفاح - موصى له بوصية من « أبي
هاشم » عبد الله بن محمد بن الحنفية بن عليّ بن أبي طالب ، إذا أحسّ
عبد الله أثر السمّ الذي سقاه دسيس من الخليفة سليمان بن عبد الملك
ابن مروان (٩٨) فمال في الطريق إلى حيث مات عند محمد « بالحميمة » .
وثمة من يعتقد أن الإمامة قد انتقلت بعد استشهاد الحسين إلى أخيه محمد
ابن الحنفية « أمه خولة بنت جعفر من بني حنيفة » .

وهذه الوصية تغني بني العباس عن الخلاف مع أبناء عليّ ، في أن يكون
العباسيون من أهل البيت أو لا يكونون .

بهذا صير بنو العباس محمد بن علي بن عبد الله بن العباس إماماً . فلما
مات آلت الإمامة إلى ابنه إبراهيم فنودي بأنه « إبراهيم الإمام » . فلما قتل
إبراهيم بايعوا للسفاح سنة ١٣٢ .

بين أبناء عليّ وبني العباس :

قضى « السفاح » على الأحياء من بني أمية ، وبني مروان . فاستحق في
التاريخ لقبه . وأدار وجهه للآخرين . فسأل عبد الله بن الحسن عن ابنه محمد
« النفس الزكية » وأخيه إبراهيم ، فلما علم باختفائهما سكت عن الطلب
حيناً ، ثم عاجله أجله . وولى أبو جعفر سنة ١٣٦ . وألح في طلبهما ، فأعجزاه
هرباً .

وللأقرباء ، أو الأصدقاء ، أولية في سورة السلطة إذا عريت من خشية الله .

وأولى الناس بالفتكة البكر منها : الأقرباء إذا خيف أن يصيروا أعداء ، والأصدقاء الذين يحتمل أن يقدرُوا على الإيذاء .. فالأولون يغري السلطان بهم الحسد أو الحقد أو الخوف من جانبه ، لما يعرفون من دخائل يخشاها . أو لما يتضح لهم من عورات ، أو فيهم من مطامع . واستخفاف بالسلطان . الذى رأوه وهو سوقة ، أو مطالبة السلطان لهم بإعطائه حقه ، أو أكثر من حقه والآخرى أخرى بالخوف والحذر . سدًا لذريعة الثوب وافتراض الفرص . أو شغلًا لهم بأنفسهم ، أو معالجة من السلطان لما يكابده من الشجن أو الفزع من جراء الحكم ، أو من العجز أو الجشع أو ضيق الصدر أو الأفق . وكالسلطان أعوانه .

ولا يتوازن فى سُدَّة السلطة إلا القليلون . وَقَلَّما ما يتوازنون ، وللإمام الصادق فى ذلك مقولة معلمة : « إذا كان لك صديق فولى ولاية فأصبته على العشر مما كان لك عليه قبل ولايته فليس بصديق سوء » .

قيل لأبى جعفر : « لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو » ! فقال « لأن بنى مروان لم تبلى رممهم بعد . ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة ونحن اليوم خلفاء ، فليس تتمهد هيبتنا فى نفوسهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة » .

وصاحب السلطة كراكب الأسد - على ما قال أفلاطون - يهابه الناس وهو لمركوبه أهيب .

لهذا أخذ بنو العباس أبناء على ، أخذ ظلوم غشوم ، وبطشوا ، وغدروا بمن حذروهم من أنصارهم وذويعهم ، كعبد الله بن على عم المنصور . وأبى مسلم الخراسانى قائدهم . وأبى سلمة الخلال وزيرهم ، بمثل ما غدروا بأعدائهم بعد أن أمنوهم .

ولما أعطى أبو جعفر المنصور محمد بن عبد الله أماناً كتب إليه محمد ساخراً : « أى أماناتك هو ؟ أمان ابن هبيرة ، أو أمان عمك عبد الله ، أو أمان أبى مسلم » .. فقد أعطى أبو جعفر عهداً لكل ، وقتل الأول

والثالث ولم يكن قد قتل الثاني بعد . لكنه كان قد حبسه من سبع سنين ليقتله بعد أن يقتل محمد بن عبد الله بن الحسن ذاته . فصير خلافته ، كالمسبعة ، لا يأمن فيها الصديق ، أو العدو ، أو الصياد ، أو الفريسة !

وزاد ضراوة أبي جعفر على أقربائه أن لواحد منهم في عنقه بيعة ، على ملأ منهم . كانت حرية أن تمنعهم وتمنعه . لولا ما للشهوة من خدر يطيح بالتوازن ، فسوّلت له نفسه أن يتخلص من البيعة بالخلاص ممن بايعه ، وإن كان من قبل يسك بركابه . بل طوّعت له شهوته أن يتخلص ممن قد يشهد ضده حتى لا يراه الناس أو يسمعه يحكى لهم ما قد رأى وقد سمع .

قال يعقوب بن عري : « سمعت أبا جعفر يقول في أيام بني أمية ما في آل محمد أعلم بدين الله ولا أحق بولاية الأمر من محمد بن عبد الله . وبايع له . وكان يعرفني بصحبته ، والخروج معه .. فلما قتل حبسني عشرين سنة » .

* * *

طلب أبو جعفر من عبد الله بن الحسن ابنه محمداً وإبراهيم . فأنكر مكانهما ، فتقاولا . وأغلظ كل لصاحبه ، وانصرف الخليفة من المدينة . فبث الجواسيس يأتونه من كل مكان بأخبار بني الحسن .

وفي سنة ١٤٠ قصد أبو جعفر للحج فنزل بالمدينة . ودعا عبد الله ابن الحسن وطلابه بولديه .

وكانا يأتیان أباهما معتمين في هيئة الأعراب فيستأذنانه في الخروج فيقول : « لا تعجلا حتى تملكا . إن منعكما أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين » . ولما لم ينل أبو جعفر منالاً انصرف من المدينة وأمر بحبس عبد الله ، وأهل بيته ، فبقوا في السجن ثلاث سنين في دار مروان - دار الإمارة في حكم بني أمية - حتى إذا كانت سنة ١٤٤ ولى أبو جعفر المنصور رباح بن عثمان عاملاً على المدينة .

وحجّ في العالم ذاته فتلقيه عامله بالربذة فردّه إلى المدينة لإشخاص عبد الله ابن الحسن وأهل بيته - بما فيهم محمد بن عبد الله ... بن عثمان - شاهد

البيعة يوم الأبواء - فكانوا خمسة عشر أخذوا في محامل إلى الربذة . ونظر الإمام الصادق إليهم وعيناه تهملان حتى جرت دموعه على لحيته . واقتيدوا إلى الربذة في الأغلال . ومزقت السياط جسد « محمد بن عبد الله .. بن عثمان » حتى إذا خرج أبو جعفر في محمل ، ناداه عبد الله بن الحسن قائلاً : يا أبا جعفر . والله ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر ... فلولى أبو جعفر رأسه كبراً ولم يعرج . وحمل أهل البيت تلقاء النجف . حتى إذا دخلوا الكوفة حبسوا في قصر كان لابن هبيرة في شرقي الكوفة .. وهدم عليهم البيت بعد ستين يوماً . فمات الذين لم يموتوا في أثنائها . ودفن الجميع تحت الأنقاض . وشيخهم عبد الله في الخامسة والسبعين !

وخرج محمد بن عبد الله لليلتين بقيتا من جمادى سنة ١٤٥ فاستولى على المدينة . وخرجت المدينة بأسرها مع محمد . فكان في جيشه علماءؤها الفحول . فيهم ابن هرمز شيخ مالك . وابن أبي سبرة ، وعبد الله بن عمر العمرى . ومصعب بن ثابت الزبيرى . أما مالك فاكتفى في الحرب بفتياه أن بيعة المنصور كانت مكرهة ، ومن أجلها أصابه ما أصابه^(١) من والى أبي جعفر وابن عمه سنة ١٤٦ .

وخرج مع محمد موسى وعبد الله ابنا الإمام جعفر الصادق . وقصد جعفر الصادق إلى محمد في مجلس حربه قال : أتحب أن يسطلم أهل بيتك « يستأصل » قال ما أحب ذلك . قال : فإن رأيت أن تأذن لى ، فإنك تعرف علتي . قال محمد : قد أذنت لك .

ومضى جعفر الصادق : فالتفت محمد إلى ابني جعفر وقال لهما : الحقا بأبيكما فقد أذنت لكما . والتفت جعفر فقال : ارجعا فما كنت لأبخل بنفسى وبكما . فحاربوا مع محمد أعظم حرب ، وكان لعبد الله بلاء ممتاز .

ووجه المنصور إلى المدينة جيشاً بقيادة ابن عمه ، وولى عهده ، عيسى ابن موسى . وفي غرة رمضان خرج إبراهيم أخو محمد واستولى على أكثر من

(١) مالك بن أنس - عبد الحليم الجندى - طبعة دار المعارف ص ٢٣٨ حيث تفصيل الواقعة .

مكان في إقليم البصرة - ثم استشهد محمد في ١٤ من رمضان سنة ١٤٥ هـ .
واستشهد إبراهيم^(١) عند باخرى لخمس بقين من ذى القعدة . وأرسلت رأسه
إلى أبي جعفر المنصور ، فطوّف بها في الآفاق .

واستولى عيسى بن موسى على عين أبي زياد ، ضيعة جعفر الصادق التي
يقتات منها ، وبشرك في ثمرها أهل المدينة .

وسرى المنصور بعد عامين من انتصار عيسى بن موسى يخلعه من ولاية
العهد . ويولى ابنه المهدي سنة ١٤٧ . وكان قد حبس عمه عبد الله بن علي
من سنة ١٣٨ في دار لتخرّ عليه فيموت سنة ١٤٧ !

وعبد الله عمه وقائده المنتصر على آخر ملوك بني أمية يوم الزاب . لكنه
خرج عليه ، فأرسل إليه جيشاً بقيادة أبي مسلم الخراساني ، ولجأ عبد الله إلى
أخويه سليمان وعيسى فأخذوا له عهداً على المنصور كتبه « ابن المققع » وفيه :
« ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه فנסأوه طوالق . ودوا به حبس . وعبيده أحرار .
والمسلمون في حل من بيعته » فأما « أبو مسلم » فسيدعوه أبو جعفر إلى قصره
بعد أمان يعطيه إياه ثم يخرج عليه عبيده فيقتلونه أمامه .
وأما عبد الله بن المققع فسيقتله والي أبي جعفر سنة ١٤٢ . فيشفى صدر
أبي جعفر .

روى الإمام الصادق ما كان بعد أن هدأت الأحوال . قال : « لما قتل
إبراهيم بن عبد الله بباخرى - حسرنا عن المدينة - ولم يترك فينا محتلم حتى
قدمنا الكوفة . فمكثنا فيها شهراً نتوقع القتل . ثم خرج إلينا الربيع الحاجب
فقال : أين هؤلاء العلوية ؟ أدخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم من ذوى

(١) كان صاحب فقه وأدب . سأل عن صاحب له فقيل تركناه يريد أن يموت فضحك قوم ، فقال :
لقد ضحكتم منها عرية ! قال عز وجل : (فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينفض فأقامه) . يعنى يكاد أن
ينفض . فوثب أبو عمرو بن العلاء فقبل رأسه وقال : « لا نزال والله بخير مادام ملك فينا » وأبو عمرو
من أئمة اللغة الأولين .

الحجى . فدخلنا إليه أنا والحسن بن زيد . فلما دخلنا عليه قال : أنت الذى تعلم الغيب ؟

قلت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : أنت الذى يجيبى إليه هذا الخراج ؟ قلت : إليك يجيبى - ياأمير المؤمنين - الخراج . قال : أندرون لم دعوتكم ؟ قلت : لا .

قال : أردت أن أهدم رباعكم وأروع قلوبكم وأعقر نخلكم . وأترككم بالسرقة لا يقربكم أحد من أهل الحجاز وأهل العراق . فإنهم لكم مفسدة . قلت له : ياأمير المؤمنين إن سليمان أعطى فشكر . وإن أيوب ابتلى فصبر . وإن يوسف ظلم فغفر . وأنت من ذلك النسل .

فتبسم . وقال : أعد علىّ ما قلت . فأعدت ، فقال : مثلك فليكن زعيم القوم . وقد عفوت عنكم ووهبت لكم جرم أهل البصرة . حدثنى الحديث الذى حدثنى عن أبيك عن آبائه عن رسول الله ﷺ .

قلت : حدثنى أبى عن آبائه عن علىّ عن رسول الله ﷺ وآله - : صلة الرحم تعمر الديار وتطيل الأعمار وإن كانوا كفاراً . قال : ليس هذا . قلت : حدثنى أبى .. عن رسول الله ﷺ وآله : الأرحام معلقة بالعرش تنادى : اللهم صل من وصلنى واقطع من قطعنى . قال : ليس هذا . قلت : حدثنى أبى . أن الله عز وجل يقول : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمى فمن وصلها وصلته ومن بترها بترته . قال ليس هذا الحديث .

قلت : حدثنى أبى .. أن ملكاً من الملوك كان فى الأرض كان بقى من عمره ثلاث سنين فوصل رحمه ، فجعلها الله ثلاثين سنة . قال : هذا الحديث أردت . أى البلاد أحب إليك ؟ فوالله لأصلنّ رحمى إليكم .

قلنا : المدينة . فسرحنّا إلى المدينة . وكفى الله مؤنته .
فى هذا اللقاء دليل على ما يخشاه من بنى علىّ ، ومن الصادق بالذات . فما

يخشاه من بنى علىّ هو فتنة الناس إذ يجتمعون إليهم . أما ما ينعاه على الصادق - وهو الوحيد الباقي ممن يمكن أن يجتمع بنو علىّ ، والناس ، حولهم - فلقد كان خليقاً أن تطيب به نفسه لما فيه من مصلحة له . وهو الادعاء على الصادق بأنه يعلم الغيب . فإنه لم يبايع لأحد يوم الأبواء .. بل ذكر أنها « الخلافة » ستكون لصاحب القباء الأصفر وهو أبو جعفر .

لكن الصادق كان حاسماً في ردّه عليه بأنه لا يعلم الغيب إلا الله . وكان مما يخشاه أن يجبى إلى الصادق خراج بعض الرعية ، مما يعطى للإمام ، وكان الصادق في ذلك حاسماً أيضاً . إذ أعلن أن الخراج لا يجبى إلا لأبي جعفر ، لأنه أمير المؤمنين . قال : إليك يجبى - يأمر المؤمنين - الخراج . وجعل التسليم بإمرة المؤمنين يسبق كلمة الخراج ، فهذه العبارة بيعة بتمامها والخراج حق من بويع له .

وكان انتقال أبي جعفر من استجوابهم إلى إخبارهم بأسباب دعوتهم ، نقلة من الغضب إلى غيره . ومن الاستجواب إلى الوعيد ، وإلى الاستعلاء . لكن الصادق نقله من عالم الكبرياء المظلم ، إلى آيات الله التي تطمئن لها القلوب . فجعله - دون أن يشعر - مقارناً في موقفه بمواقف الأنبياء ، لعله يهتدى بهم . وذكره كلام ربه جلّ وعلا . وذكره الشكر والصبر والمغفرة . وذيل ذلك كله بأنه من نسل الذين يغفرون ويشكرون ويصبرون .

بهذا أمكن الرجل الذي قد قلبه من الصخر أن يبتسم . بل أقبل يسأل أن يتعلم . فحدثه الإمام الأحاديث ، واحداً بعد واحد ، حتى وقف منها عند حديث طول العمر . فلقد كان يرجو أن يطول عمر دولته ، التي يخسر من أجلها في كل يوم آخرته ، إلا أن يغفر الله له ... فظنّ أنه بهذا الحديث يجد أماناً لنفسه أو تخفيفاً لما تكابده . وعندئذ ظهر ضعف نفسه ، وجلال شأن المعلم الذي يتعلم عليه .

ولم يكد الإمام يأخذ زمام الكلام حتى راح يعلمه درساً من الدروس في البداء : وهو أن القضاء الذي يتوقف على الشرط يتحقق عند وقوع الشرط .

فهذا ملك وصل رحمه فطالت عمره من ثلاث إلى ثلاثين - وكان أبو جعفر ملكاً - ولكم طالت العمر على ملك بنيه وحفدته . فلقد كان كل خلفاء بني العباس بعده منهم ، ملكوا خمسة قرون ، حتى دمر الظلم دولتهم .

إنما كان أبو جعفر يتداول الإمام الصادق بحذر خليق بما للمصادق من كرامة عند الله والناس . وهو صاحب أكبر مدرسة شهدتها حواضر الإسلام في ذلك الزمان : المدينة ومكة والكوفة وبغداد والفسطاط . وكان في الستين من العمر ، يروى عنه الآلاف حديث النبي وفقه الصادق وأبيه وأجداده .

والذين يحسنون الظن بالمنصور لا يتصورون حلمه يطيش فيفقد الامة الإمام الذى لا ينازعه ملكه . وربما جاز للذين لا يحسنون الظن ، أن يخالوه يحسب حساباً للأعداد التى لا تحصى من تابعى الإمام . وقد كان أبو جعفر يحسب حساب العلماء .

ومن بطش الحكام بالعلماء ما يدمر الدول .
ومن فداء الأتباع ما يستهان فيه بعرين الأسد . لقد اقتحم الفدائيون من أتباع سنان « شيخ الجبل » خيمة صلاح الدين وهو فى عسكره ليصيبوه بخناجرهم فى وجهه .

* * *

ظاهر من حديث الإمام أنه حدثه فى صلة ذوى الأرحام ، وإن كانوا كفاراً . فما أحرأهم بالصلة إن كانوا غير ذلك . ويظهر مما يرويه الطبرى أن أبا جعفر كان يؤد أيامئذ لو نسى الناس ما كان من أهل البيت فى حقه . وما كان منه فى حقهم .

روى الطبرى : لما أتى المنصور برأس إبراهيم بن عبد الله وضعه بين يديه وجلس مجلساً عاماً وأذن للناس . فكان الداخل يدخل فيسلم ويتناول إبراهيم فيسئ القول فيه . ويذكر منه القبيح التماساً لرضا أبى جعفر ، وأبو جعفر ممسك متغير لونه . حتى دخل جعفر بن حنظلة البهرانى فسلم ثم قال

« عظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حقدك »
فاصفر لون أبي جعفر وأقبل عليه فقال : أبا خالد . مرحباً وأهلاً . فعلم الناس
أن ذلك قد وقع منه . فدخلوا فقالوا مثل ما قاله جعفر بن حنظلة .

وربما دلّ على ذلك الميل ما يرويه عيسى بن روبة : لما جرى برأس إبراهيم
فوضع بين يدي أبي جعفر بكى . حتى رأيت دموعه على خدي إبراهيم . ثم
قال : أما والله إن كنت لهذا لكارهاً . لكنك ابتليت بي وابتليت بك .

ولقد ترك أبو جعفر الذين تواروا عنه ممن خرجوا مع محمد وإبراهيم ،
ومنهم الحسين بن زيد . وكان الحسين قد تربى في بيت جعفر الصادق بعد قتل
زيد . وكان يسمى « ذا الدمعة الكبيرة » لكثرة بكائه على أبيه وأخيه يحيى .
ولم يسأل أبو جعفر ولدى جعفر الصادق « عبد الله وموسى » وقد خرجا مع
محمد . وترك علماء المدينة . وترك عيسى بن زيد إذ توارى عنه . ولما قيل له
من حرسه أو من المنافقين : ألا تطلبه ؟ قال : لا . والله لا أطلب منهم رجلاً
بعد محمد وإبراهيم : أنا أجعل لهم ذكراً ؟

ومن ناحية أخرى ففقه الإمام الصادق يعلم الناس طاعة الإمام العادل .
والصادق هو القائل : « لا يستغنى أهل بلدة عن ثلاثة يفرع إليهم في أمر
دنياهم وآخرتهم . فقيه عالم ورع . وأمير خير مطاع . وطبيب بصير ثقة ، فإن
عدموا ذلك كانوا همجاً » .

وهو فقه في طاعة الخليفة العادل أو الأمير الخير . وأبو جعفر يتمنى أن يظهر
في الناس كذلك .

والصادق يقول - ولا نحسبه يقصد إلا أبا جعفر وأبناء عمه - « ماتتبت
الدنيا إلا على بنى العم المتعاطفين بالبر المتعلقين بالأدب المجتمعين على
التناصر » . فهذه يد ممدودة بالسلام من الإمام . ودرس للرعية لتسلم العنان
لأمير خير . وما أحرى أبي جعفر أن يكونه .

وفي سنة ١٤٧ عزم المنصور وهو راجع من موسم الحج أن يسير الإمام
الصادق من المدينة إلى العراق فاستعفاه الإمام فلم يعفه وحمله معه . ولكن

الصادق كان يقبل عليه بمقدار فليست دنيا أبي جعفر لتجدر بالمقاربة .
وفي ذات يوم أرسل إلى الصادق : لماذا لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس ؟
فأجابه : « ما عندنا ما نخافك عليه ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له .
ولا أنت في نعمة فتهنيك عليها . ولا نعدّها نعمة فنعزيزك عليها . فلم
نغشاك » ؟ ويحيب أبو جعفر : تصحبنا لتنصحنّا . ويحيب الإمام :
« من أراد الدنيا فلا ينصحك ومن أراد الآخرة فلا يصحبك » فالمدى يريد
الدنيا يسير في ركب صاحبها فلا يقول كلمة لله . والذي يريد الآخرة يعتزل
بجالس رجل يعجزه عمله ويعميه أمله عن طريق الآخرة .

وصدق « جعفر الصادق » ولم يكذب أبو جعفر المنصور .
فلقد كان أحوج الناس إلى النصيحة . وكانت صحبة الصادق له أماناً من
النار .

دخل عليه سفيان الثوري يوماً فقال له : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلماً
وجوراً فطأطأ رأسه وقال : ارفع حاجتك .. قال سفيان : حج عمر فقال
للخازن : كم أنفقنا من بيت المال . قال : بضعة عشر درهماً . وأرى هنا أموالاً
لا تطبق الجمال حملها ..

وخرج سفيان .
ولما راجع المنصور كاتبه ليقول سفيان قال له : « اسكت يا أنوك » أحق .
فما بقي على الأرض من يستحي من غير « مالك » وسفيان^(١) .

(١) يروى مالك أنه استدعاه فدخل فوجد عنده ابن أبي ذؤيب (١٥٩) والقاضي ابن سميان
فسأل مالكاً عن حكمه « حكم المنصور » هو عدل أم جور ؟ فاستعفاه مالك بن الجواب . فسأل ابن
سميان عن حكمه فأنى عليه . فسأل ابن أبي ذؤيب فأجاب : « أنت والله عندى شر الرجال . استأثرت
بمال الله ورسوله وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين وأهلك الضعيف وأتعبت القوى . وأمسكت
أموالهم . فما حجتك غداً بين يدي الله » قال المنصور : ويحك . ما تقول ؟ قال : رأيت أسياًفاً وإنما هو
الموت ولا بد منه . عاجله خير من آجله .

قال مالك . ثم خرجا وجلست . فقال المنصور : أجد رائحة الخنوط عليك ؟ قلت : أجل لا غنى =

= إليك عني ما نحي وجاءني رسولك ظننت أنه القتل .. قال : أو ماتراني أسعى في أود الإسلام وإعزاز الدين عاتذاً بالله .. يا أبا عبد الله انصرف إلى مصرك راشداً مهدياً .. وإن أحببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك أحدًا . قلت : إن يجبرني على ذلك أمير المؤمنين فسمعاً وطاعة . وإن يجبرني اخترت العافية .. قال : انصرف إلى أهلك معافى مكلوفاً . فلما أصبحنا أمر بصصر دنائير في كل صرة خمسة آلاف درهم ثم دعا برجل من شرطته فقال له : تدفع إلى كل رجل منهم صرة . أما مالك إن أخذها فبسييله . وإن ردها عليك فلا جناح عليه . وإن كان ابن سمعان ردها ، فأنتى برأسه وأن أخذها فهي عافيته . وإن أخذها ابن أبي ذؤيب فأنتى بأسه وإن ردها عليك فبسييله .

قال مالك : أما ابن سمعان فأخذها وسلم . وأما ابن أبي ذؤيب فردّها وسلم . وأما أنا فكنت والله محتاجاً إليها فأخذتها . ثم رحل أبو جعفر متوجّهاً إلى العراق .

وروى مالك أنه استدعاه يوماً وعبيد الله بن طاووس بن كيسان . وكان طاووس فقيه اليمن حتى مات في سنة ١٠٦ « طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس جد أبي جعفر » قال أبو جعفر : حدثني حديث أيبك . قال عبيد الله حدثني أبي أن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه . قال مالك فضمت ثيابي خوفاً من أن يصيبني دمه .. فقال المنصور تناولني هذه الدواة .. ثلاث مرات . فلم يفعل . قال أبو جعفر لم لا تناولني ؟ قال أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها . قال : قوما عني . ذلك ما كنا نبغي قال مالك : فمازلت أعرف لابن طاووس فضله منذ ذلك اليوم .

ويروى الإمام الشافعي حول أساطين جامع عمرو بن عبد الله بن علي بن شافع مثل ذلك . عندما قال ابن أبي ذؤيب أخذت المال من غير حلة وجعلته في غير أهله ، وأن المنصور رد عليه بقوله : والله لولا أنا لأخذت أبناء الفرس والروم والديلم هذا المكان منك فوالة لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك . أما عمرو بن عبيد فكان أبو جعفر المنصور يستقبله بالترحاب وينشد في نزاهته الشعر « كلكم يمسي رويد . كلكم طالب صيد . غير عمرو بن عبيد » وهو زعيم المعتزلة الذين يطلقون ألسنتهم في الملوك والصحابة . دخل عليه فقال : « إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها واذكر ليلة تتمخص عن يوم لا ليلة بعده » قال الربيع بن يونس حاجب المنصور : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . قال عمرو للمنصور : « إن هذا صديقك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً . وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه » قال أبو جعفر المنصور : فما أصنع ، قلت لك خاتمي في يدك ففعال وأصحابك فاكفني . قال عمرو : لا : ادعنا بعدلك ، تسخ أنفسنا بعونك ، ببابك ألف مظلمة أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق . ولما مات عمرو كان أول واحد من الرعية ، وآخر واحد ، ينظم في رثائه الخليفة شعراً . ومن أبياته :

وإذا الرجال تنازعوا في شبهة وصل الحديث بحجة وبيسان

ولو أن هذا الدهر أبقي صالحاً أبقي لنا عمراً أباً عثمان

والجاحظ من تعصبه لزعيمه يقول فيه : « إن عبادته نفى عبادة عامة الفقهاء والمحدثين » . وسبقني صلة المعتزلة بالدولة العباسية طويلاً بعد وفاة عمرو وأبي جعفر لأن المعتزلة يمدون إلى =

وإذا كان هذان الإمامان اللذان ليس في الأرض غيرهما ، تلميذين في مجلس الإمام الصادق . يلتزمان علمه وترسمان هديه . فما أحوج الخليفة إلى أن يقارب مجلس الصادق بأن يدعوه إلى مجلسه .

الحق أن أبا جعفر كان من فزعه من الآخرة وحاجته إلى رضا الرعية صادق الرغبة في التقرب إلى العلماء ، ومن أجل ذلك كان يرضى منهم ما يصك مسامعه من النقد وإن كان لا يستجيب له .

طلب ذلك من صديقه عمرو بن عبيد ، والمعافرى^(١) ، فاعتزلاه لكثرة الظلم على بابيه كما قالوا له . وهزّ ضميره ابن أبي ذؤيب وتوعده بجهنم . وكمثله صنع ابن طاووس فقبل استعفاء الصديقين . وأقر صدق ابن أبي ذؤيب^(٢) فقال له : لولا أنني أعلم أنك صادق لقطعت عنقك ، كما ارتاح لابن طاووس مع رفضه أن يطيعه مخافة أن تؤدّى طاعته إلى المشاركة في معصية .

ولقد رفض أبو حنيفة أن يجلس للقضاء في دولته بحجة الخوف من أن يظلم الناس إرضاء لحاشية يحب أبو جعفر أن يكرمها ، وما إكرام الحاشية إلا الحكم لمصلحتها فيما ترتكب من مظالم ، لحساب صاحب السلطان أو نتيجة إغضائه .

= بنى العباس سبباً علمياً وسبباً سياسياً قالوا : إن واصلاً « وهو زعيمهم مع أخى زوجته » عمرو بن عبيد « أخذ أصوله عن أبي هاشم (٩٨) عبد الله بن محمد بن الحنفية - بن عليّ بن أبي طالب وكان أبو هاشم قدرياً مثلهم - ينفي القدر - ويضيفون أن محمد بن عبد الله بن عباس^(٣) تعلم على أبي هاشم^(٤) وتلقى منه الوصية بالإمامة بعده - دون بنى علي بن أبي طالب - عندما أحس أبو هاشم بدنو أجله إذ دس السم إليه سليمان بن عبد الملك .

(١) لما استخلف أبو جعفر قصد إليه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى قادماً من القيروان وكان زميلاً له في عهد الطلب ، فعرض عليه المقام ببغداد . وقال له كيف رأيت ما وراء بابنا ؟ فأجابه : رأيت ظلماً فاشياً وأمرًا قبيحاً . قال : لعله فيها بعد من بابي . فأجابه : بل كلما قربت استفحل الأمر وغلظ . قال : ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا وقولك مقبول عندنا ؟ فأجابه : رأيت السلطان سوكاً . وإنما يرفع إلى كل سوق ما ينفق فيها . قال : كأنك كرهت صحبتنا ؟ فأجابه : ما يدرك المال والشرف إلا من صحبتكم . ولكني تركت عجزاً وإنى أحب مطالعتها .

(٢) يفضل أحمد ابن حنبل بن أبي ذؤيب على مالك لجاهرته بالحق في وجه أبي جعفر . وتقدير الشافعى لابن أبي ذؤيب يترأى في رأى تلميذه أحمد . وفي رواية الشافعى عن عمه في صده . أما تقدير مالك فكان عن مشاهدة أو مشاركة .

وهذا ردّ فقهي من إمام أهل الرأي يتضمن التنديد بأبي جعفر وصحبته .
وصحبة الظالم وجه مشاركة في الحكم ، وربما في الظلم ، بتوطيد الأمور للظالم
أو بتمكينه أن يبلغ غرضه ، أو تقديم مصلحته على مصلحة المحكومين . وفيها
شهادة له في الناس . فهي شركة خاسرة في الدنيا والآخرة .
والإمام الصادق هو القائل : « أيما مؤمن قدّم مؤمناً إلى قاض أو سلطان
جائر ، فقصي عليه بغير حكم الله ، فقد شركه في الإثم » وعلى يقول : « كفاك
خيانة أن تكون أميناً للخونة » .

وذات يوم دخل زياد الفندي على الصادق فقال له : وليت لهؤلاء ؟
- يقصد أصحاب السلطان - قال : نعم . لي مروة وليس وراء ظهري
مال . وإنما أواسي إخواني من عمل السلطان . فقال « يا زياد أما إذ كنت
فاعلاً ، فإذا دعيتك نفسك إلى ظلم الناس عند القدرة على ذلك فاذكر قدرة الله
عز وجل على عقوبتك وذهاب ما أتيت إليهم عنهم ، وبقاء ما أتيت إلى نفسك
عليك » .

وفي واحد من اللقاءات يقول الصادق لأبي جعفر : « لقد بلغت ثلاثة
وستين ، وفيها مات أبي وجدى » ليعلن له الاستخفاف بالموت الذي يتهدد
الناس به ، وأن الإمامين اللذين قضيا - زين العابدين والباقر - لم يعمرأ أكثر
مما عمر ، ولكل أجل كتاب . فماذا يهاب ؟ إنه يطلق إعلانه بلغة عالية ، وفي
هدوء قادر على أن يطفئ جذوة رجل خصم . وفي توكل على الله يبلغه مأمنه .
فهو إذا واجهه واجهه والله معه .

أرسل إليه أبو جعفر ذات يوم رزام بن قيس يدعوه للقائه ، ففصلا عن
المدينة ، حتى بلغا النجف فنزل جعفر عن راحلته فأسبغ الوضوء وصلى ركعتين
ثم رفع يديه وهو يقول : « اللهم بك أستفتح ، وبك أستنجح ، وبمحمد عبدك
ورسولك أتوسل . اللهم سهل حزونه وذل لي صعوبته وأعطني من الخير أكثر
مما أرجو واصرف عني من الشر أكثر مما أخاف » .

ثم ركب راحلته حتى إذا بلغا قصر المنصور ، أعلم المنصور بمكانه . فلم

يحجبه قليلاً أو كثيراً ، بل تفتحت الأبواب . ورفعت الستر . فلما قرب من المنصور قام إليه فتلقيه . وأخذ بيده وماشاه . حتى انتهى به إلى مجلسه . ثم أقبل عليه يسأله عن حاله .

و ذات يوم عزم المنصور على حاجبه الربيع بن يونس أن يدعو ، وكانت تبرق في أساريه بوارق الخطر . فلما خرج من اللقاء بسلام سأل الربيع الإمام الصادق عن الدعاء الذى دعا به ربه فأكرمه الله فى لقاء المنصور . فأخبره به . فالصادق يستحضر رضا بارئ السماء فى كل آونة وتعينه السماء .

ومع ذلك السلام الذى نشده الصادق وعلمه ، يروى الطبرى أن المنصور لما عزم الحج - فى آخر أيامه - دعا ريطة بنت أبى العباس زوج المهدي ، وكان زوجها بالرى ، فأوصاها بما شاء ودفع إليها مفاتيح غرفة بها خزانته ، وأمرها ألا تسلمها إلى المهدي إلا عندما يحىء نبأ موت المنصور . فلما مات ذهبت ريطة والمهدي ففتحا الغرفة فإذا يقتلى من بنى على فى آذانهم رقاع . فيها أنسابهم . وهم بين شيوخ وشباب وأطفال . فلما رأى المهدي ذلك ارتاع . فحفرت لهم مقبرة دفنوا فيها ثم بنى عليها دكاناً .

لم يكن المنصور يكتفى بأن يقول مقالة لويس الرابع عشر بعد ثمانية قرون « أنا الدولة » . ذلك المقال الذى نبذه واستهجنه الساسة والمؤرخون فى الشرق والغرب ، بل كان المنصور يدعى دعوى أبعد وأشد ، كان يخطب فيقول : « إنما أنا سلطان الله فى الأرض » فيجمع فى يده ما عجز عنه الأباطرة والبابوات جميعاً ! فإنما تقاسم الإمبراطور والكنيسة الأشياء ، فى القرن التاسع للميلاد ، فصار لقيصر ملك الأرض وللكنيسة مملكة السماء . أما أبو جعفر المنصور فادعى فى الأرض سلطان السماء . وأى شىء يستبعد على صاحب هذه الدعوى !!

وأبو جعفر - مع ذلك - ليس إلا واحد من المستبدين الذين يزخر ثبت التاريخ بخطاياهم أو ضحاياهم .

إليك مثلاً واحداً من تاريخ الدولة التى تلقى إليها الديمقراطية الغربية

مقاليدها : لقد أرسل « هنرى الأول » ملك إنجلترا فرسانه يقتلون « توماس »
بيكت رئيس أساقفة لندن من أجل خلافه معه في ولاية العهد لابنه في الثلث
الأخير من القرن الثاني عشر . وفي الثلث الأول من القرن السادس عشر بعث
« هنرى الثامن » ملك إنجلترا « توماس » ولزى رئيس أساقفة يورك إلى
السجن ريثما يصدر عليه حكم الإعدام فمات قبل أن يعدم . ثم أرسل إلى
المقصلة « توماس » مور كبير قضاته من أجل خلافهما له في زواجه وطلاقه .

* * *

ولقد كان فزع المنصور من أجل دولته حرياً أن يخرجته عن الاتزان فيستحوذ
عليه الشيطان ، لولا إمساك الإمام الصادق بالأعنة كلها كلها لقيه ، فكان يضعه
في موضع النصفة .

والذين يهابون لقاء الملوك ضعفاء عن إخفاء دخائلهم ، من البغض أو الحسد
أو الخوف . والذين ليس في قلوبهم من ذلك شيء يشجعون . أما الأئمة فآله
معهم . وهو حسبهم .. وأين من هذا الذى معه مالك الأرض والسماء ، ملوك
دولة أو إقليم !

من أجل ذلك يشجع الرجال الصدق إذ يستشهدون ، ومن أجله نظر
الصادق إلى أبى جعفر في شجاعة وصدق . فكان يلزمه القصد والنصفة .
ولا عجب إذا كان أبو جعفر في دخيلة نفسه ، يريد ليحفظ ظاهر الأمر في
وقار من لا يسفك الدم ، إلا بقدر . والصادق حجة له في ثبات حكمه ، مذ كان
لا يرى بيعة غيره .

وأبو جعفر عليم بما يجرى في ملكه : وهو من مطالع حكمه يستعمل العسس
في كل اتجاه . فلم يلبث سنين حتى أصبح يعلم بكاء بنت مالك بن أنس من
الجوع في داخل الدار ، وهى وأبوها يكتمانه إلا على الله سبحانه !
وأبو جعفر هو القائل عن أوتاد حكمه : ما أحوجنى إلى أن يكون على بابي
أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم . وهم أركان الدولة لا يصلح الملك
إلا بهم . أما أحدهم ففاض لا تأخذه في الله لومة لائم . والآخر صاحب

شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم
الرعية . ثم عضّ على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول : آه آه . قيل : ماهو
ياأمير المؤمنين قال : صاحب يريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة .

الفصل الثاني

الرجلان

« يا بني : إن الذين حولنا
لو يعلمون عن علي ما نعلم تفرقوا عنا
إلى أولاده » .

عبد العزيز بن مروان

الحق أن الاختلاف كان شديداً بين الإمام جعفر الصادق وبين الخليفة أبي جعفر المنصور : في طبيعتهما وطريقتهما وغاياتهما .

هذا صاحب سلطان ، فيه شركاء متشاكسون ، تركبه هموم الدنيا ، وتلبس جلده شياطينها . يترافع لينحنى الناس له ، ويجمع دنياهم في قبضته . شحيح النفس منقبض اليد ، « دوانيقي » ، يحسب بالدرهم والدانق^(١) تبدو منه صعقات السلطان عند الفزع . وتحوله مطامعه من الدمثة إلى الشراسة . فلا يطمئن له أحد ، أقام دولته على أشلاء الأعداء ، وفزع الأقرباء ، وهاجم أهل البيت ، في خزائنه !

أما الإمام فرجل سلم لكل رجل : يتواضع ليرفع الناس كلهم ، ولا تستعبده الدنيا قيد أغلة . يعطي ولا يأخذ . ويحيى أنفس الناس ، بالعطاء المسماح من العلم ، والجاه ، والمال ، « ما قال لا قط إلا في تشهده » . فهكذا كان أبوه وجده .

والحق كذلك أن المنصور - بنجاحه في إقامة أكبر دولة في التاريخ الوسيط -

(١) الدانق سدس درهم .

يعتبر واحداً من ثلاثة لا يعرف لهم التاريخ الإسلامى رابعاً . ولا ينزل بهم التاريخ العالمى عن أعظم المؤسسين للدول .

أولهم معاوية بن أبى سفيان ، وثانيهم عبد الملك بن مروان . مصايرهم متشاكلة . ووسائلهم متشابهة ، وخصامهم لأهل البيت أساس دولتهم . ونجاحهم فى دنيا السلطة مقطوع القرنين :

بدءوا علماء ، وانتهوا ملوكاً كالملوك الأعاجم ! والإسلام فضل من الله ، يسخر لخدمته من يشاء . ولو مال عن الجادة رجل ، فإنما يخذل نفسه ولا يصيب الإسلام بسوء .

لقد أخطأ معاوية فى إقامة دولته وفى حربه . وكان لزاماً أن يقوده خطؤه إلى أن يجعل الدولة . « هرقلية كما مات هرقل قام هرقل » . فيكون ابنه يزيد أشأم والأُم خلف لسلف . لكن أحداً لا يتنازع فى أن دولته - وإن لم تمثل دولة الدين - قد انتشرت فى البر والبحر ونشرت الإسلام وجاهد فى غزواتها الصحابة وبنوهم والعلماء والفقهاء ، بل غزا وجاهد فيها بين جيوش المسلمين أبو الشهداء ، الحسين بن على ، فى فتح أفريقية وغزو جرجان وطبرستان والقسطنطينية .

ومعاوية هو الذى مهد لدولة ابن عمه مروان بن الحكم .
وعبد الملك بن مروان هو المؤسس الحقيقى للدولة المروانية التى أينعت فروعها بالأندلس وأبقت الإسلام فى أوربة ثمانمائة عام ، لتهدى للحضارة الحديثة أن تنطلق من جامعات الأندلس وجوامعها . وهو عمّ عمر بن عبد العزيز وصهره .

وعمر : خامس الراشدين فى مدة خلافته . الذى كتب لعامله على المدينة يوم ولى الخلافة : اقسام فى ولد فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فقد طالما تخطت بهم حقوقهم . وقال معلناً حق على وباطل بنى أمية ومروان « كان أبى^(١) إذا

(١) عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، عينه عبد الملك على مصر وأفريقية . وهو الذى بنى مدينة حلوان ضاحية القسطا - القاهرة . وفيها عاش عمر بن عبد العزيز زماناً . وجيوش أفريقية هى التى فتحت الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير .

خطب فنال من عليّ تلجلج . فقلت : يا أبت إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر عليّ عرفت منك تقصيراً ؟ قال : أو فطنت إلى ذلك ؟ يا بني إن الذين حولنا لو يعلمون من عليّ ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده .. » .
لكن أبا جعفر كان أثقل الثلاثة حملاً . إذا كان معاوية وعبد الملك قد سبقاه ففصلاً بين الدين والدولة فجراً نظرية الدولة الإسلامية ، وكان هو قد سار على الدرب الذي اختطاه ، إن المعارك التي خاضها من أجل دولته كانت أوسع مدى .

ففزعته من أبي مسلم وجنده لم يكن إلا رجع الصدى لصوت يتصايح في آفاق حياته ، وأعماق ذاته : أنهم سرقوا الدولة من أبناء عليّ . ومن هنا خوفه المستمر من انتقاض أهل خراسان الذين جاءوا لمبايعة « الرضا من آل محمد » . وأهل البيت أولى منه في أنظار الذين جاءوا به وبأخيه إلى السلطة . وخوفه من أعضاء بيته أشدّ . فلقد كان عمه عبد الله بن علي قائد جيش الشام ، لكنه خرج عليه ، وأخذ فتنته أبو مسلم الخراساني ، حتى إذا استسلم - على عهد - حبسه أبو جعفر ليقطله بعد زمن من قتله أبا مسلم ذاته . وكذلك غدر بعيسى بن موسى الذي انتصر على محمد وإبراهيم فسلبه حقه في ولاية العهد ، وولى ابنه المهدي عهده . فكان غدره كهيمة ما غدر عبد الملك بعمر بن سعيد الأشدق في ولاية العهد ، قائلاً : « ما اجتمع فحلان في شول إلا أخرج أحدهما صاحبه » .

وما كان نقض معاوية عهده مع الحسن بن علي ، إلا درس المعلم الأول للرجلين : أن يستعملا الزمن . وأن ينتهزا الفرص . وأن يحركا الحوادث بدهاء : وأن يقطفا الثمر : ثمرة ثمرة .

وأبو جعفر لا يتردد في إعلان التشابه بينهم وفي تعطشه للدم . فيعلن في الناس أن « الملوك ثلاثة : معاوية وكفاه زياده . وعبد الملك وكفاه حجّاجه . وأنا . ولا كفاة لي » .

كأنما لم يكن فيما سفكه كفاية . فكان يريد أن يسفك له دمًا أكثر سفاحون أصغر !

الواقع أن أزمات أبي جعفر كانت آخذة بخناقها من كل صوب . فهي في نفسه ، وفي بيته ، وفي دولته ، وفي صلته بالأمة : أن كانت القوة العسكرية التي أوجاءته إلى الحكم ، قد تخلّت عنه بل حملت السلاح ضده . وكانت القوة الفكرية التي قامت عليها الدولة ، قد صار أصحابها فرانس له . وكانت القوة العصبية ، قوة أسرته ، تترنح بخروج عمه عبد الله وقتله . وبغماراته للاستئثار لبنينه بالخلافة دون سائر أهله .

فإذا كان ثمة من أحبه ، فإن حبهم كان أقبح من البغض ، مذ كانوا يؤهلونه ، فيكفرون أنفسهم ويفضحونه ، بل كادوا يقتلونه ، يوم أحاط الراوندية بقصره فلم يمكنه الله منهم إلا بمساعدة عدو كان يطلب رأسه ، هو معن بن زائدة الشيباني . وكان معن حرياً أن يقتله في وطيس المعركة . حتى الذي أنجاه كان عدواً له !

وفي سنة ١٤٥ انتفضت خراسان فقتلت جيوشه من أهلها سبعين ألفاً وأسرت بضعة عشر ألفاً .

ولم يكن شغله بالجيوش المحاربة في المشرق أو في جزيرة العرب أهم أشغاله . ففي أفريقية خرج عليه محمد بن الأشعث وإلى أفريقية ، فجرد عليه جيشاً بقيادة الأغلب بن سالم ، وسيقتل الأغلب بعد سنين سنة ١٥٠ . ولم ينهزم الخوارج إلا بعد أن خاضعوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين وقعة ! وأمام جيش قوامه خمسون ألفاً .

كل أولئك وهو من شح نفسه ، ومن اصطحاب جماجم أهل البيت في خزائنه ، في أمر مريع . يحسب أن كل صيحة عليه هي العدو . وأن كل خروج عليه يدعو الجميع ليخرجوا . وهم على خروج قادرون .

مع كل ذلك نجح أبو جعفر بالحذر والغدر ومعالجة الخصوم . فاستبقى دولته لتكون أطول الدول الإسلامية عمراً . وأبعدها في الحضارة العالمية أثراً . لكن التاريخ - وقانونه الاستقامة - وطبيعة الأشياء - وقانونها « لكل فعل رد فعل ، مساوٍ له في المقدار ، ومضادّ له في الاتجاه » - لم يترك أبناءه

وحفدته دون عقاب . وكأنما كان طول عمر دولته تطويلاً للعقاب عليهم وتكثرًا لما ينزل بهم .



كان من لوازم السلطة أو علامات عدم الثقة بالنفس أو بالغير ، أن تتراءى من أبي جعفر في لقائه لأهل البيت أو التعامل معهم نزعات المستوفز الحذر ، أو مظاهر الاستعلاء عند مواجهة الأعداء ، أو من يضعهم في مواضع الأعداء لكن الإمام « الصادق » كان يمسك بالزمام فيرد الخليفة دأبها إلى حيث يطلب الموعظة ، أو العلم .

ومن إمساك الزمام في أحد هذه اللقاءات إمساك الخليفة ذاته أن يميل على أهل البيت . فيقول له « لا تقبل في رحمك وأهل الرعاية من أهل بيتك من حرم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار . فإن النمام شاهد زور وشريك إبليس في الإغراء بين الناس . فقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) ونحن أنصار وأعوان . وللملك دعائم وأركان ، ما أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، وأمضيت في الرعاية أحكام القرآن ، وأرغمت بطاعتك الله أنف الشيطان . وإن كان يجب عليك في سعة فهمك وكثرة علمك ومعرفتك بآداب الله أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك فإن الكافي ليس بالواصل . إنما الواصل من إذا قطعت رحمته وصلها . فصل رحمك يزد الله في عمرك ، ويخفف عنك الحساب يوم حشرك » .

ويقول المنصور : قد صفحت عنك لقدرك . وتجاوزت عنك لصدقك . فحدثني عن نفسي بحديث أعظ به ويكون لي زاجر صدق عن الموبقات . وبهذا السؤال انتشل المنصور نفسه من موقع قاطع الرحم ، إلى موضع المواسى لذوى القرابة ، ومكانة طالب الموعظة ، فأدلى بها إليه الإمام . قال : « عليك بالحلم فإنه ركن العلم . واملِك نفسك عند أسباب القدرة . فإنك إن تفعل ما قدرت عليه كنت كمن شفى غيظًا وداوى حقدًا ، وأحب أن

يذكر بالصولة . واعلم أنك إن عاقبت مستحقاً لم يكن غاية ما توصف به إلا العدل . والحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر » .
تلك آداب الله ، وأسباب الحكم الصالح ، وملاك السيطرة للحاكم المسلم على قلوب الرعية .

وظاهر أن أبا جعفر كان يتظاهر بالاستعلاء إذ يدعى الصفح ، وليس لديه تهمة .. ولو كانت عنده تهمة للصادق لما طلب الموعظة إليه .

وللملوك سماعات ، أو أبواق دعايات ، منتشرة في الرعية ، تلتقط موجات الرضا والغضب ، والهدوء والقلق ، وتثبت نظائرها ، حسب الحاجة . والنمامون كثر ، كالفراشات التي تدور حول النور ، تلتمس الدفء أو الظهور . ولأبي جعفر جهاز لا يني عن استعماله ليروع خصومه ، أو ليجعلهم في قبضة يده ...

فلقد يدس من أجهزته دسيساً بعد دسيس على بني الحسن ، والحسين ، مثل أن يدعو ابن مهاجر ذات يوم فيقول له : خذ هذا المال وإيت المدينة والقي عبد الله بن الحسن وجعفر بن محمد « الصادق » وأهل بيتهم وقل لهم : إني رجل من خراسان من شيعتكم وقد وجهوا إليكم هذا المال . فادفع إلى كل واحد منهم على هذا الشرط . كذا وكذا . فإذا قبض المال فقل إني رسول . وأحب أن تكون معي خطوطكم بقبض ما قبضتموه مني ... وذهب ابن مهاجر . فلما رجع قال له أبو جعفر ما وراءك ؟ قال : أتيت القوم وهذه خطوطهم ما خلا جعفر ابن محمد . قال لي : يا هذا اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد . فإنهم قريبو العهد بدولة بني مروان . وكلهم محتاج . فقلت : وماذا أصلحك الله . فقال : ادن مني . فدنوت فأخبرني بجميع ما جرى بيني وبينك كأنه ثالثنا .

قال المنصور : يا ابن مهاجر إنه ليس من أهل بيت نبوة إلا وفيهم محدث . وإن جعفر بن محمد محدثنا اليوم .

فالصادق يكشف للمنصور ودسيسه ، حقائق يعلمونها ، وينبههما على ألا يورطا أهل البيت من جراء حاجاتهم . يريد لأهله السلامة . وللخليفة

الاستقامة ، ولأمة الطمأنينة . وفي كل ذلك خير لأبي جعفر المنصور .

ولقد كان المنصور - نفسه - يجعل الصادق حجة من حججه ، وإذا فاخر أهل البيت فاخرهم به !

كتب إليه محمد بن عبد الله « النفس الزكية » يدعو لبياعه ، وعيَّره بأمهات العباسيين لأنهن أمهات ولد . وأم المنصور بربرية تدعى سلامة ، يتردد اسمها على السنة الذين فاخروه . فتولَّى المنصور كبره في الرد على محمد . ولم يدع الفرصة تفوته ليستفيد حجة من مكانة الإمام الصادق . قال فيما قال : « وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من علي بن الحسين زين العابدين . وهو لأم ولد . وهو خير من جدك حسن بن حسن . وما كان فيكم بعده مثل محمد بن علي الباقر وجدته أم ولد ، وهو خير من أبيك . ولا مثل ابنه جعفر . وجدته أم ولد ، وهو خير منك » .

وغضَّ المنصور طرفه عن أم الولد في شجرة الباقر « شاه زنان » بنت كسرى ملك الفرس . وأين منها - بعد إذ أسلمت - سلامة ! على أن اللقاءات - أو الاحتكاكات - بين الرجلين لا تتوقف . فهذان قطبان . لكل منهما عالمه . وهما ضدان لها مستويان . والشرف فيهما لرجل الدين والزهد والعلم . والملوك أحوج إلى العلماء من الملوك . وأبو جعفر حريص غُدر ، يسلط على الصادق من وقت لآخر ، وفي مكان بعد آخر ، وجوهًا من التهديد لشخصه والاتهام لولائه والإضرار بعلمه . يقول له ذات يوم في لقاء له بالكوفة : أنت يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك وفسادك على أهل البيت من بنى العباس . وما يزيدك الله بذلك إلا شدة حسد ونكد ، وما تبلغ به ما تقدره . فيجيبه الصادق : « والله ما فعلت شيئاً من ذلك . ولقد كنت في ولاية بنى أمية - وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم ، وأنه لا حق لهم في هذا الأمر - فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عنى شيء من جفائهم الذى كان لى . وكيف أصنع هذا الآن . وأنت ابن عمى . وأمس الخلق

بى رحما، وأكثر عطاء وبراً فكيف أفعل هذا !
والصادق بهذا يسجل للخليفة برّه . ويقدر له أولية ذوى الأرحام عنده فى البرّ بهم ، ويقرر له حقّه فى الخلافة .. وليس للمنصور فوق ذلك طلبات . وبهذا يستلّ الضغن من صدره ، ليدعه فى ميدانه الذى يسره الله له .

ومع ذلك يعاد المشهد فى بغداد ، بعد سنة ١٤٥ ، فيستحضره المنصور لمواجهة جديدة .

يقول له : يا جعفر . ما هذه الأموال التى يجيبها لك المعلى بن خنيس ؟
قال الصادق : معاذ الله ما كان من ذلك شيء .

قال المنصور : تحلف على براءتك بالطلاق والعتاق .

قال الصادق : نعم أحلف بالله ما كان من ذلك شيء .

قال المنصور : بل تحلف بالطلاق والعتاق .

قال الصادق : ألا ترضى يميني : الله الذى لا إله إلا هو !

قال أبو جعفر : لا تنفقه على .

قال الصادق : وأين يذهب الفقه مني ؟

قال المنصور : دع عنك هذا فإنى أجمع الساعة بينك وبين الرجل الذى رفع

عنك هذا حتى يواجهك .

فأتوه بالرجل ..

قال الصادق : تحلف أيها الرجل أن الذى رفعتك صحيح ؟ قال : نعم . ثم

بدأ باليمين ، قال . والله الذى لا إله إلا هو الغالب الحى القيوم .

قال الصادق : لا تعجل فى يمينك فإنى استحلفك .

قال أبو جعفر : ما أنكرت من هذه اليمين ؟

قال الصادق : إن الله تعالى حىّ كريم إذا أثنى عليه عبده لا يعاجله

بالعقوبة . ولكن قل أيها الرجل : أبرأ إلى الله من حوله وقوته . وألجأ إلى حولى

وقوتى . إني لصادق برّ فيما أقول .

قال المنصور للرجل : احلف بما استحلفك به أبو عبد الله .

قال راوى الخبر : فحلف الرجل . فلم يتم الكلام حتى خرّ ميتاً . فارتعدت فرائض المنصور . وقال للصادق : سر من عندى إلى حرم جدك إن اخترت ذلك . وإن اخترت المقام عندنا لم نأل جهداً فى إكرامك . فوالله لأقبلت بعدها قول أحد أبداً .

وأين يذهب الفقه من إمام المسلمين ، وهو الذى يوجه اليمين ، ومن حقّه صياغتها !! وفى الصيغة ما ذكر المفتريّ بعظم افترائه ، وبالخالق سبحانه (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) . ومن الإنسانى ، ومن جلال مقام الإمام عند الله والناس ، أن يختر صريعاً من يفترى على الله وعلى الإمام ، فى مجلس الخليفة .

بهذه الآية هدى جبار السموات جباراً على الأرض لا يطأطئ رأسه . فإذا حركها عند ما يناوشه الذباب سأل حضّاره كالمستنكر : لم خلق الله الذباب !! وكان الصادق حاضراً يوماً فأجاب : ليزل الله به الجبابرة .

ولئن كان فى وجود الذباب فى المجلس تذكرة للجبابرة ، ففى سقوط المفتري على الإمام بين أيديهم آية ما بعدها آية .

وكما يضمن أبو جعفر طاعة الإمام بالبغتات يصطنعها من حين لآخر ، لا يتورع عن محاولة إفحام الإمام ، بين علماء العصر ، أو تسخير أعظم علماء العراق ، لينصب منه شركاً يوقع فيه الإمام ؛ وليس هوى أبى جعفر مع أى منها . ولا بأس عنده إذا أعجز كل منها ، أو أحدهما ، صاحبه .

وإن المرء ليلمس خساسة الحيل الظاهرة من أبى جعفر ، باتخاذ العلم والفقه أداة للشّر المدبر ، وعظماء العلماء وسائل للإساءة للمسلمين الذين يأمن جانبهم فلتنقس عليها فظاعة تدابير السرية لمن يخشى العواقب منهم ، ولندرك جلاله الحق إذ ينتصر على الحيلة ، وجلجلة الحقيقة إذ تظهرها وسيلة أريد بها طمس معالمها ، ومكانة الإمام الصادق فى العلم إذ يتواضع أمامه العظماء من الفقهاء ، فى مجلس علمى يسيطر عليه خليفة عالم :

أقدم المنصور الإمام الصادق من المدينة إلى العراق وبعث إلى أبى حنيفة فقال

له : إن الناس قد افتتنوا بجعفر . فهيئ له المسائل الشداد .
يقول أبو حنيفة عن لقائه بعد ذلك : « بعث إلى أبو جعفر وهو بالحيرة
فأتيته . فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه . فلما أبصرت به دخلتني
من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلني لأبي جعفر فسلمت عليه ، فأوماً
إلى فجلس . ثم التفت إليه فقال : يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة . قال
جعفر : إنه قد أتانا . ثم التفت إلى المنصور وقال : يا أبا حنيفة ألق على
أبي عبد الله « الصادق » مسائلك . فجعلت ألقى عليه فيجيبني فيقول : أنتم
تقولون كذا . وأهل المدينة يقولون كذا . ونحن نقول كذا . فرموا تابعهم . وربما
خالفنا جميعاً حتى أتيت على أربعين مسألة » .

ولقد قال أبو حنيفة في مقام آخر : « ألسنا رويناً أن أعلم الناس أعلمهم
باختلاف الناس » .

وإنما يقصد أبو حنيفة باختلاف الناس الاجتهاد الفقهي للمقارنة بين مذاهب
المجتهدين .. فأبو حنيفة - وهو الإمام الأعظم عند أهل السنة - يقرر أن
الإمام الصادق أعلم الناس باختلاف الناس في المدينة حيث علم المحدثين ، وفي
الكوفة حيث علم أهل الرأي .. وكانت قد بلغت أوجيها ، على أيدي أبي حنيفة
ومالك ، وهما التلميذان في مجالس الإمام الصادق . وكمثلها كان إمام العراق
الآخر سفيان الثوري .

وأبو حنيفة أكبر سناً من جعفر الصادق . ولقد قبله بأعوام وسيموت بعده .
وكان أبو حنيفة كما قال مالك لو حدثك أن السارية من ذهب لقام بحجته .
والجاحظ كبير النقدة يقول بعد مائة عام : « جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا
علمه وفقهه ، ويقال إن أبا حنيفة من تلاميذه وكذلك سفيان الثوري . وحسبك
بهما في هذا الباب » .

والجاحظ يذكر تلاميذ العراق . ولو ذكر تلاميذ المدينة لما نسي مالك
ابن أنس .



بلغ الإمام الصادق بمسألمته للمنصور بعض آماله لأهل بيته ، بقية أيام حياته ، بل طوال خلافة أبي جعفر المنصور . فكان ميمون النقية بالسلام الذى نشده ، والأمان الذى دعا له ، وأطال زمانه . ومنع كثيراً من الطغيان الذى طالما شكاه أبوه ، على ما سيروى ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة - « ثم لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام ، ونقصى وتمتحن ، ونحرم ونقتل ولا نأمن على دماننا ودماء أوليائنا . ووجد الكاذبون والجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً .. فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنا ما لم نقله وما لم نفعله ليبغضونا إلى الناس . وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن . فقتلت شيعتنا بكل بلدة . وقطعت الأيدى والأرجل على الظنة . ومن يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سُجن أو نُهب ماله أو هدمت داره . ثم لم يزل البلاء يزداد إلى زمان عبید الله بن زياد قاتل الحسين . ثم جاء الحجاج^(١) فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة و تهمة . حتى أن الرجل يقال له زنديق أحب إليه من أن يقال شيعة على » .

وفى عصر الباقر كان الحسن البصرى (١١٠) الجسور « قاضى عمر بن عبد العزيز وشيخه الذى لا يهاب الخلفاء » إذا روى عن أمير المؤمنين علىّ قال : « قال أبو زينب » ليخفى الاسم الذى لا خفاء له ! بل كان الشعبى (١٠٤) شيخ المحدثين بالعراق يقول : « ماذا لقينا من آل علىّ إذا أحببناهم قتلنا وإذا أبغضناهم دخلنا النار » .

وكان طبيعياً فى دولة « هرقلية » همها الملك لا الدين ، تعاقب من تتوهم خطره عليها وتترك من تزندق ، أن تزداد الاستهانة بالدين فى مقابل السلام الذى تنشده الدولة ، والبلهنية الى يؤثرها دعاة الدعة . بدأ ذلك من عهد معاوية وسيستمر استمرار فساد الدولة . وستستبقيه لتصرف الناس عن الاهتمام بأهل بيت النبى ، أو توقع بهم لفرط تفريط من أحدهم ، أو تعزى كذباً إليهم ،

(١) أطلق الخليفة سليمان بن عبد الملك من سجون الحجاج فى يوم واحد ثمانين ألفاً . منهم ثلاثون ألفاً بغير ذنب . ومنهم ثلاثون ألف امرأة .

منتهزة للفرص حيناً أو مفتعلة لها في أغلب الأحيان .
ثم كانت الأوامر تصدر من بغداد إلى أرجاء الإمبراطورية التي تدين لبني
العباس ، ومنها مصر ، أن « لا يقبل علويّ ضيعة . ولا يسافر من الفسطاظ
إلى طرف من أطرافها . وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلاّ العبد الواحد - والرقيق
يوم ذاك قوّة العمل - وإن كانت بين العلويّ وبين أحد خصومة فلا يقبل قول
العلويّ . ويقبل قول خصمه بدون بينة » !

وكانوا يسفرون من الأطراف إلى العاصمة ليكونوا تحت الرقابة بل أمر
الرشيّد أن يضمن العلويون بعضهم بعضاً ، وكانوا يعرضون على السلطان كل
يوم ، فمن غاب عوقب ... وكأن « أهل بيت النبی » جالية من العدو
أو شرذمة من المشبوهين ..



ولقد كان يكفي للحیطة أقل القليل من حاكم يريد أن يطمئن . وإنما كان
ذلك الكيد سياسة إبادة مستمرة ، يشترك في تنفيذها الخلفاء ، والأشباع
الظلمة . تدفع النائرين إلى أن يثوروا ، فيؤخذوا بثوراتهم ، أو يؤخذ غيرهم
بجرائر تنسب إليهم ، أما سياسة أهل البيت فواضحة من شعار أبناء عليّ في
كلمة مسلم بن عقيل : « إنّنا أهل بيت نكره الغدر » قالها عندما عرض عليه
البعض قتل عبيد الله بن زياد في إحدى زياراته . فنجّا ابن زياد بهذا الشعار
ليقتل مسلماً فيما بعد . أما شعار حاشية معاوية فكان « إن لله جنوداً من عسل »
يقصدون دسّ السم إلى أعدائهم فيه .

ولقد طالما استعمل الطغاة السمّ في أهل البيت في القرون التالية . فإن لم
يكن سمّ في خفاء فالقتل جهره . ومن الروايات أن أئمة أهل البيت - الاثني
عشر - ماتوا مسمومين ما عدا أمير المؤمنين عليّاً وأبا الشهداء الحسين - ماتا
شهيدين .

وفي أيام الخليفة الهادي (سنة ١٦٩) كان أهل بيت النبی في المدينة
يستعرضون كل يوم ! لكل واحد منهم كفيل من نسيب أو قريب . بل ولى

عليهم واحد من ذرية عمر بن الخطاب هو عبد العزيز بن عبد الله . فولى بدوره على أهل البيت رجلاً يقال له عيسى الحائك . فحبسهم الحائك في المقصورة . فثارت لأجلهم المدينة إذ ثاروا ، وكسرت السجون وأخرج المسجونون ، وبويع للحسين بن علي بن الحسن . فبقى واحداً وعشرين يوماً بالمدينة ثم ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج .

وكرر التاريخ نفسه في خروج الحسين ومن معه من أهل المدينة إذ جاءه الإمام موسى الكاظم يستقبله من الخروج معه ، كما صنع أبوه مع النفس الزكية « محمد بن عبد الله » . قال الكاظم للحسين « أحب أن تجعلني في حل من تخلفي عنك » قال : أنت في سعة . قال الكاظم : « أنت مقتول .. وعند الله عز وجل احتسبكم من عصابة .. » .

وجهاز الهادي جيشاً لاقاه حيث استشهد في موقع يقال له : « فخ » ومعه كثير من العلويين . وجملت رأس « الحسين شهيد فخ » إلى القائد العباسي بالبشرى ! مع رؤوس مائة آخرين .

واستعرض القائد الرؤوس بالمدينة فقال الإمام الكاظم عندما عرضوا رأس الحسين : « إنا لله وإنا إليه راجعون . مضى والله مسلماً صالحاً . صوّماً قوَّاماً آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . ما كان في أهل بيته مثله » .

وكان مع الحسين يحيى بن عبد الله بن الحسن « أخى محمد وإبراهيم ، وإدريس أبناء عبد الله بن الحسن » فلما انتهت المعركة استترثم ظهر ، فخرج على الرشيد في بلاد الديلم ، ووجه إليه الرشيد جيشاً بقيادة الفضل بن برمك حتى استسلم بعهد مكتوب . ومع ذلك استفتى الرشيد العلماء لقتله ، فأبى ذلك محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وصاح : ماذا تصنع ، لو كان محارباً وولّى كان آمناً .

لكن الرشيد وجد من علماء السوء من أفتاه بقتله ، وكان هو أقدر على النفاق السياسى من مفتيه . أخذ من المفتى ما يملكه ، ليصنع هو ما يقدر عليه .. فسجن يحيى وضيق عليه الخناق حتى مات في سجنه ، كمثل ما سيموت في

سجن الرشيد الإمام موسى الكاظم ويشهد الرشيد الناس عليه ، ليبرئ نفسه من تهمة اغتياله .

أما الأخ الرابع إدريس فأقلت هارباً إلى مصر ، ثم إلى المغرب ، وقيل دس إليه الرشيد هناك من سمّه . فأسس ابنه دولة الأدارسة .

وسيموت في حبس الرشيد كذلك عبد الله بن الحسن « الأفطس » . قتله جعفر بن برمك وزير الرشيد . وسيموت في حبسه محمد بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن الحسن ، والعباس بن محمد بن عبد الله ، وكذلك الحسين بن عبد الله بن جعفر^(١) .

وفي عهد المأمون وجّه إلى جماعة من آل أبي طالب . فحملوا إليه في مرو عاصمة خراسان وفيهم الإمام على الرضا « بن الكاظم بن الصادق » . فخاطبه في أن يكون وليّ عهده . فأبى . فتهدّده بقوله : « إن عمر جعل الشورى في ستة آخرهم جدك . وقال : من خالف فاضربوا عنقه . ولا بدّ من قبول ذلك » فقبل . وباع له المأمون والعباس بن المأمون .

ثم دعاه المأمون للخطبة فأوجز ، وكأنه يتوقع وجازة أيامه . فاكتفى بعد أن حمد الله بقوله : « إن لنا عليكم حقاً برسول الله صلى الله عليه وآله . ولكم علينا حق فإذا أدبتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم » . لكنه مات بعد قليل في ظروف مبهمة لا يستبعد منها دس السم كما تؤكد الشيعة ، فموت على الرضا كان حلاً لإشكالات بنى العباس سواء من يحبون المأمون ، أو الكارهون

(١) وتستمر عجلات الطغيان في الدوران . وتتوالى مقاتل الطالبين توالى الخلفاء العباسيين - ففى بدء عهد المأمون يقتل بالعراق : الحسن بن الحسين بن زيد عند قنطرة الكوفة مع أبي السرايا . والحسن ابن إسحق بن على في وقعة السوس مع أبي السرايا . ومحمد بن الحسن بن الحسين يقتل باليمن في أيام أبي السرايا وعلى بن عبد الله بن محمد يقتل باليمن في أيام أبي السرايا ومحمد بن إبراهيم بن إسماعيل « وهو ابن طباطبا » الخارج مع أبي السرايا سنة ١٩٩ مطالبين بالبيعة « للرضا من آل محمد » . وقد انهزموا بجيش هرثة بن أعين قائد المأمون سنة ٢٠٠ . وقتل العلويين على يد هذا الجيش كثيرون .

للرضا، أو للمأمون ذاته^(١).

ولا نستطرد للسرد. فليس في تاريخ البشرية، كلها، أسرة شرّدت
وجرّدت، وذاقت العذاب والاسترهاب، مثل أهل بيت النبي ﷺ.

بدأ بهم تاريخ الإسلام مجده. واستمر فيهم بعبْرته وعظمتها. قدم أبوهم
للبشرية أسباب خلاصها بكتاب الله وسنة الرسول. وقدم أهل بيته أرواحهم في
سبيل القيم التي نزل بها القرآن وجاءت بها السنة. كانت مصايحهم تتحطم
لكن شعلتهم لا تنطفئ، لتخلد الجهاد والاستشهاد والإرشاد، بالمثل العالی
الذي كانوا، والضوء الذي لم تمنع الموانع من انتشاره، وعلم فيه أبناء النبي
أمتة بعض علومه: أن الاستشهاد حياة، للمستشهادين وللأحياء جميعاً^(٢).

(١) وفي عهد المعتصم خرج محمد بن القاسم .. بن علي بالطالقان فقبض عليه عبد الله بن طاهر
وبيعث به إلى الخليفة. وحبس المعتصم عبد الله بن الحسن .. بن جعفر حتى مات في مخبئه. فلما جاء الواثق
أمن العلويون بضع سنين إذ جمعوا ثم حبسوا، عن الانطلاق خارج العاصمة سامرا، فتطامنوا واطمأنت
السلطة. ثم هبّت عليهم في أيام المتوكل ريح عاتية من جنون الفرع.
فلقد أزال قبر الحسين وجرثه حتى لا يزار. وشتت شمل شيعته وفرقهم في النواحي فمنهم من حبسوا
ومنهم من تواروا حتى ماتوا في مهربهم - وتناقل الناس أشعاراً منسوبة إلى ابن السكيت عالم النحو
الكبير، وكان يعلم ولدى المتوكل. وفي هذه الأشعار:

تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمر ك قبره مهودما
أسفوا علي ألا يكونوا شاركوا في قتله فتتبعوه رميا
وربما أراد المتوكل أن يتيقن من صدور هذا الشع أو من ولاء العالم حين سأله:
أيها أحسن: ولدای « المؤيد والمعتز » أم الحسن والحسين؟ ولم يرضه جوابه. فأمر بقتله فقتلوه.
ولم يلبث المتوكل إلا قليلا حتى قتله ابنه « المنتصر » في مؤامرة!

وإنما كانت فظاعة الجريمة الأخيرة قصاصاً عجلت به السماء، لمقتل عالم آخر الصدوق. ولم يصلح
للعلويين بال إلا أشهراً بعد مصرع المتوكل. ليعود البطش بهم إلى عنفوانه في أيام المستعين. فمنهم من
خرج وخرج الناس معه، كيحيى بن عمر خرج فقتل. ومنهم من خرج ولم يخرج الناس معه، فحبس
ليموت سنة ٢٧١. وهو الحسن بن محمد المعروف بالحرون. ومنهم محمد بن جعفر خرج وحبس حتى مات
في سامراء ليتتابع سجل الشهداء ..

(٢) نفق عن السرد، عند أبيات لابن الرومي (٢٢١ - ٢٨٤) من جيميته في رثاء يحيى بن عمر
بعد مقتله إذ خرج عل بني العباس في القرن الرابع من جراء ظلمهم:

= أمامك فانظر أى نهجيك تهج
أكل أوان للنبي محمد
بنى المصطفى كم يأكل الناس شلوكم
أبعد المسمى بالحسين شهيدكم
أنهى العلاء لهفى لذكراك هففة
لمن تسجد الأرض بعدك زينة
سلام وربحان وروح ورحمة
ألا أيها المستبشرون بيومه
نظار لكم أن يرجع الحق راجع
غررتم إذا صدقتمو أن حالة
أبى الله إلا أن يطبوا وتخبوا
لعل قلوباً قد أطلتم غليلها

طريقان شئ . مستقيم وأعوج
قتيل زكى بالدماء مخرج ؟
لبلواكمو عما قليل مفرج
تضاء مصاييح السماء فسرج ؟
يأسر مكواها الفؤاد فينضج
فتصبح فى أشوابها تبرج ؟
عليك ومحدود من الظل سحسج
أظلت عليكم غمة لا تفرج
إلى أهله يوماً فتشجوا كما شجوا
ندوم لكم . والدهر لوان . أخرج
وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجوا
ستظفر منكم بالشفاء فتلج